

الاستعارة بين بناء التصورات واستخلاص القواعد:

مقاربة بالسّمات والفرضية المحلية

Metaphor Between Conceptual Construction and Rule Extraction:
An Approach Based on Features and the Local Hypothesis

(01) Hamid Daghouj

Accredited Lecturer

Mohammed V University, Rabat, Morocco

hamdagh70@gmail.com**Abstract**

This paper aims to analyze one of the most prominent examples of common metaphors in school books, taken from the sermon of Abu Muhammad al-Hajjaj bin Yusuf al-Thaqafi, ("I see heads that have ripened and it is time to harvest them.") In this analysis, I will adopt the thematic relations hypothesis with the theory of traits. The article is organized as follows: In the first axis, we learn about the theory of traits and thematic relations hypothesis (semantic roles), we apply them in the second axis to the proposed example, and in a third point, we reveal the role of actual features, and the conceptual movement they impose on the topics, and how features and the semantic role interact in analyzing the metaphor, and revealing the simple deep structures behind the architecture of the metaphorical construction.

Keywords : features, local hypothesis, coercion, metaphor, textbook.**ملخص:**

نحاول في هذه الورقة تحليل أحد أبرز أمثلة الاستعارات الشائعة في الكتب المدرسية والمقتطفة من خطبة أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقافي: "أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها"، وسأبنى في هذا التحليل الفرضية المحلية المطعّمة بنظرية السمات.¹⁻² المقال منظم على الشكل التالي، صدره بتقديم عام يضع البحث في سياقه، ثم نعرف في محور أول بالنظرية المحورية (الأدوار الدلالية)، ونظرية السمات، ونطبقهما في المحور الثاني على المثال المقترح، ونكشف في نقطة ثالثة عن دور السمات الفعلية، وتبنى منهجا تحليليا تكامليا بين النظرية المحورية التي تمدنا بإمكانية تعميم الحركة والحلول على أفعال الحواس مثل "أرى" وبين نظرية السمات التي تسعفنا في تفكيك سمات الحدث

¹ مطلع الخطبة كما جاء في كتاب الحجاج المفترى عليه، لزيادة (1995). ص، 85: "أنا ابن جلا وطلاع الثنايا = متى أضع العمامة تعرفوني. يا أهل الكوفة أما والله إنني لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمتله، وإنني لأرى أبصارا طامحة وأعناقًا متطاولة، ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمام واللحى تترقق...". وانظر، ص، 32، من الكتاب نفسه.

والأدوار الدلالية لموضوعاته، مما يسهم في الكشف عن البنيات التحتية البسيطة الثابتة خلف معمارية البناء الاستعاري.

الكلمات المفتاحية: السمات، فرضية المحلية، القسر، الاستعارة، الكتاب المدرسي.

تقديم

عرفت العقود الأخيرة اهتماما متزايد بالاستعارة، باعتبارها وسيلة لتوسيع إدراكنا وتصوراتنا للعالم، وذلك بحكم التطور الذي عرفته اللسانيات التوليدية وما تلاه في شقها الدلالي التصوري المعرفي، وقد كان للاستعارة المعرفية دورا رائدا في مقارنة الاستعارة باعتبارها نسقا تصوريا يشكل أساسا لتفكيرنا وسلوكنا اليومي، ووسيلة للإدراك، نكشف من خلالها عن كيفية فهمنا للذات وللوجود وللحالات بينهما، ومن ثمة كانت تجربتنا في العالم بالنسبة لبعض المقاربات المعرفية استعارية في عمقها.³ إن تنظيم وبناء الحقيقة الواقعية موكول في جزء منه لنسقنا الاستعاري،⁴ فحين نتعامل مع الحقيقة، فإننا نتعامل معها باعتبارها حقيقة لغوية لا واقعية، أي كما ينتجها الذهن ويرتبطها النحو، والانتقال من الحرفي إلى الاستعاري لا يكون انتقالا من الصدق إلى الكذب، بل هو انتقال من المعجمي إلى التصوري، لأن إدراكنا للعالم الخارجي لا يظل في طابعه المادي بل نحوله إلى تصورات لغوية قد تظل خرساء في الفكر إذا لم نقدر على معجمتها، كل هذا يجعلنا، نتصور دون عناء، أن التحليل الأدبي والعلوم المعرفية يتقاسمان همَّ الصور البيانية: وذلك لعدم وجود أدبية دون صور بلاغية، هكذا لم تعد الاستعارة "مجرد صورة بلاغية تكون بمثابة خطيئة ترتكب ضد نظام اللغة، أو مجرد مصادفة سعيدة"،⁵ لأن كل متصرف في اللغة مقيد بعلاقات مفرداتها نفسيا واجتماعيا ونحويا واستعاريا، فكأنها-اللغة- هي التي تتحكم فيه وليس له سوى اختيار أنواع بُناها.

ولكن ماذا نقصد بالجملة الاستعارية؟ وكيف تناولتها الكتب المدرسية؟ وهل هناك بديل لتجاوز الكيفية التي تُتناول بها الاستعارة في مدارسنا؟ نوضح مفهومي الفرضية المحلية، ونظرية السمات، ثم نعود للإجابة عن هذا السؤال.

1- الفرضية المحلية

³Dominique Legallois, "L'approche cognitive de la catégorisation par métaphore: illustration et critique à partir d'un exemple d'É. Zola," *Pratiques* 165-166 (2015), 1, published October 1, 2015, accessed December 10, 2020, <http://journals.openedition.org/pratiques/2485>, DOI: <https://doi.org/10.4000/pratiques.2485>.

⁴ جورج لايكوف ومارك جونسن، *الاستعارة التي نحيا بها*، ترجمة جحفة عبد المجيد، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1985)، 21.

⁵ جان-جاك لوسركل، *عنف اللغة*، ترجمة محمد بدوي (بيروت: المنظمة العربية للترجمة والمركز الثقافي العربي، 2005)، 68.

بنيت هذه الفرضية على مصادرة هامة مفادها أن «التنظيم الفضائي، من وجهة نظر نفسية، يشكل مركز المعرفة البشرية».⁶ بمعنى أن العبارات التي تنتظم البنيات التركيبية نحويا وداليا داخل الحقل المعجمي الدال على المكان/الفضاء هي أصل العبارات في الحقول الدلالية الأخرى، يمثل فيها للمجرد والملموس على حد سواء، ومن ثمة يمكن تعميم الدلالة التي تعبر عنها المحمولات الفضائية، على المحمولات في الحقول الدلالية الأخرى. يسمح لنا هذا التعميم بالقول التالي: إن العبارات الاستعارية في الحقول الأخرى سواء كان المحمول يعبر عن حالة، أو نشاط، أو إتمام، أو إنجاز، ما هي سوى نمط يحاكي العبارات الدالة على الفضاء وترسيخا لتصوراته، ويبقى الفرق في طبيعة الحقل الذي تنتمي إليه الموضوعات التي ينتقيها المحمول، من حيث كونها حقيقة أم مجازا.

وتأخذ هذه الفرضية نمطين من الأحداث؛ هما أحداث الحركة التي تتضمن الكيان الذي ينتقل والمسار الذي يقطعه، حيث يسمى الكيان المتنقل محورا، ثم أحداث الحلول التي تتضمن كيانا ومحلا حيث الكيان (الشيء) يحل في المحل⁷. أو بعبارة أخرى إن التصورات التي تعبر عنها أفعال الوضع الفضائي مثل 'سافر' كحركة فزيائية و'وجد' كحالة قارة و'مكث' كفعل مكوث يمكن أن تعمم على حقول أخرى كحقل الملكية وحقل التعيين، إذ يمكن التعبير عن هذه التصورات في إطار ما يسميه جاكندوف (1983) "ظاهرة التعميم عبر الحقول" من خلال محمولات تصورية هي (ذهب س ص) و (وجد س مكان) و (مكث س مكان)، فكما تتوسع هذه الأفعال إلى حقلي الملكية والتعيين والزمن وطبقات أفعال أخرى، تتوسع لانتقاء كيانات مجردة من خلال انتقالها من حقل دلالي إلى حقل دلالي آخر لتساهم في التوليد الدلالي وما يتضمنه من توسعات استعارية⁸. ومن فضائل ظاهرة التعميم عبر الحقول مساهمتها في إدراك التناوبات الدلالية للوحدة المعجمية الفعلية التي تكون موضوعاتها مجردة، كما يحصل في المجاز عموما.

وما دامت المفردات محدودة والمعاني غير محدودة، فإن ذلك يرخص للتوسع في المعجم ويجعل التوسع خاصية كلية من خصائص اللغات البشرية، وهذا ما يسمح للأفعال بانتقاء موضوعات من حقول دلالية أخرى، متنوعة الدلالة مختلفة

⁶ محمد غالي، المعنى والتوافق، مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي، (الرباط: معهد الدراسات والأبحاث للتعريب 1999)، 262.

⁷ أحمد بريسول، دلالة أفعال الحركة في إطار المعجم المولد (الدار البيضاء: دار الكتاب الجديدة، 2013)، 86.

⁸ محمد غالي، التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1987)، 79-78.

الإحالة، وحاملة لوظائف تركيبية وأخرى دلالية، من أجل التعبير عن أفكار ومعانٍ متنوعة. وتعد الفرضية المحلية مستوى معرفياً من مستويات البنية التصورية عند جاكندوف، وتمثل هذه البنية مستوى مستقلاً من التمثيل المعرفي، يمثل من خلاله للمفاهيم عبر عدد محدود من التصورات تسمى أوليات تصورية؛ وتُربط البنية التصورية بالبنيتين التركيبية والفونولوجية من جهة، كما تُربط بمستويات غير لسانية من جهة ثانية، مثل المستوى البصري وغيره. وتعد نظرية البنية التصورية نظرية تفكيكية لأنها تجزئ المعنى إلى أوليات تصورية، وتتبنى في ذلك التحليل المركبي. كما أنها بناء تصوري، (يدعي أن المعنى تحدده كليات توجد فقط في الذهن)، لأنه يعرف المعاني عبر التصورات/المفاهيم باعتبارها كيانات ذهنية. وإضافة إلى أنها تضع نظرية للمعنى وتفصل القول فيه، فإنها ذات نزعة محلية (localism) لأنها تفترض أن مفاهيم المحل/المكان والحركة مفاهيم أساسية في التحليل الدلالي للأفعال والجمل. ويرى جاكندوف أن البنية التصورية المعجمية هي البنية التصورية كما تحددها البنية الموضوعية للأفعال. إنها "ليست جزءاً من اللغة في حد ذاتها، بل هي جزء من الفكر، إنها محل لفهم الملفوظات اللسانية في السياق، تدمج الاعتبارات الذريعية والمعرفة بالعالم... إنها البنية المعرفية التي يتم فيها التفكير والتخطيط".⁹

. عن نظرية السمات

وضع مفهوم السمة/ات أولاً في علم النفس ليرصد الشخصية الفردية، وقد دخلت إلى اللسانيات التوليدية بناءً على تصور مفاده أن اللغة البشرية جزء من العالم الطبيعي ومن ثمة يمكن أن تخضع لحوسبات رياضية "تنسجم مع عتبات البساطة والتعميم والطبيعية والجمال، فضلاً عن الضرورة البيولوجية والتصورية".¹⁰ والسمات من الأدوات التي يعتمد عليها الوصف والتفسير اللغويين لتفكيك الكيانات اللغوية، وتخصيصها على المستوى الصوتي والتركيب والدلالي.¹¹ ومن ثمة إثراء الحوسبة الذهنية للغات الطبيعية، وتنظيم نحوها وهندسته باعتباره جزءاً من علم النفس.

وتعتمد نظرية السمات على الذرات اللغوية باعتبارها مكونات للبنية الداخلية للمقولات المعجمية والوظيفية، وهي تتعلق باللغة الداخلية/الملكية اللغوية التي تمثل أساس تفكيك السمات باعتبارها وسيلة للتفكير وإنتاج المعنى

⁹ Ray Jackendoff, *Foundations of Language: Brain, Meaning, Grammar, Evolution* (Oxford: Oxford University Press, 2002), 123.

¹⁰ عبد الصمد الرواعي، "السمات وهندسة اللغات"، في *السمات في المقولات اللغوية: الوجاهات والنمطيات*، إعداد محمد غاليم (الرباط: منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، جامعة محمد الخامس، 2015)، 135.

¹¹ محمد غاليم، "السمات وهندسة اللغة"، في *منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب*، جامعة محمد الخامس-الرباط، ط1 (2015)، 78 (2015)، 9.

والاكتساب والتعلم، من منطلق أن اللغة اتصال بأنساق تصورية وإدراكية أخرى يمتزج فيها البيولوجي بالنفسي المعرفي، أو الحسي الحركي بالقصدي التصوري، باعتبارهما عاملين من عوامل التفكير، تخضع لهما اللغة البشرية. ويتمشى هذا مع ما يعتبره تشومسكي تقليصاً للنحو، أي؛ "اللغة تصميم أمثل لعلاقة الصوت بالمعنى"، فالوحدات المعجمية تمنحنا صورة للاشتقاق ثم يأتي المكون الصوتي ليصمم الاشتقاق ويعطيه صورة صوتية،¹² ثم يأتي المكون الدلالي ليعيد تصميم هذا الاشتقاق حتى يتمكن من إسناد تأويل دلالي ملائم له، ولا بد لكل سمة من قيمة، وتوصف السمة بكونها كلية أو خاصة، إن للمقولة المعجمية سمات تركيبية، وأخرى وظيفية، وثالثة دلالية، وتلعب السمة دوراً مهماً في المقولة اللغوية. ولأجراً هذا الإطار النظري، ومن ثمة الكشف عن مزاياه في الكشف عن البنيات الفكرية الاجتماعية والنفسية الثابتة خلف قناع اللغة الاستعارية ننتقل إلى تحليل الجملة الاستعارية موضوع المقال.

2. تحليل ومناقشة المثال

تدخل الكتب المدرسية الجملة المقتطفة من خطبة الحجاج في باب المجاز اللغوي، الذي يفيد أن كلمة ما استعملت في غير معناها الحقيقي، وهي التي تعبر عنها الجملة الأولى في المثال أسفله:

(1) أرى رؤوساً قد أينعت، وحن قطافها.

التي حذف منها المشبه به (الثمار)، ورمز له بشيء من لوازمه (أينعت)، ولمعرفة المشبه به يلجأ الكتاب المدرسي إلى إعادة بناء الجملة الاستعارية وفق علاقة المشابهة بدمج أداة التشبيه الكاف أو مثل لإظهار المشبه به، فتصبح الجملة على الشكل التالي:

(2) أرى رؤوساً قد أينعت كالثمار وحن قطافها.

حيث يثار في تخيلنا تصور يحيل على أن الرؤوس قد شبهت بالثمار، وما يثير هذا التصور هو القرينة، أي؛ الفعل "أينع" لأنه جزء من الثمار. يقف الكتاب المدرسي عند هذا المستوى من تفكيك المعنى الاستعاري عن اقتناع أو عن غير اقتناع من الدرس، وهذا يعني أن فهم القول الاستعاري يتوصل إليه بمعرفة القاعدة، بالكشف عن علاقة المشابهة بين المشبه به والمشبّه، وعن نوع الاستعارة أهي مكنية أم تصريحية. ولكن في نظرنا، وبالنظر إلى الدلالة المعجمية للجملة موضوع التحليل، يبدو أنها تتضمن فعلين هما الفعل 'أرى' المتصرف للمضارع، والفعل 'أينع' المتصرف للماضي، المؤكد بقْد، وتربط بينهما علاقة سبب بنتيجة، أي أن الرؤوس التي نضجت -سبب- يحين وقت قطعها -نتيجة-، والكلمات التي تبدو في الجملة دخيلة هي كلمة

¹² وحدات معجمية في سياق معين، أو ما يسمى بالضم الذي لا يسمح بتجاوز وحدتين معجميتين إلا إذا توافقتا في السمات.

رؤوس، وهذا ما يدفعنا إلى إعادة النظر في مقصود الجملة الثاوي خلف ما تعنيه دلالتها المعجمية، لذلك وجب النظر في التغيرات التي تكون نتيجة منطقية لتأثير معين يحدث في موضوعات الفعل، مثل السمات الدامجة لتمثيلات مستوى الجملة التصوري القائم على المعطيات المعجمية البانية للجملة؛ من بين هذه التأثيرات نجد ما يسمى بالقسر، أي فرض معنى جديد مخالف لما لا تقوله المعطيات المعجمية للجملة والمستنبط منها، من ذلك أن 'البناعة' المستفادة من الفعل 'أينع' لا تعني النضج لأنه لا ترتبط برؤوس البشر في الحقيقة، كما أن الرؤية المستفادة من الفعل 'رأى' لا تعني تسليط البصر على شيء لرؤية شكله أو حجمه، ومن ثمة يجب إعادة تسييق الجملة ووضعها في بعدها التداولي الذي يقصد إليه الحجاج، فنخرج بمعنى جديد يتضافر فيها البعد اللغوي والبعد التداولي، من منطلق أن الجمل عموماً تحظي، كما تسطر ذلك المبادئ الدلالية التصورية والمعرفية، بنفس المنزلة، سواء كانت جملاً طبيعية، أو ما يسمى بالحقيقة، أو مجازية استعارية، فالمتكلم يميل إلى محاولة البحث عن التأويلات الدلالية الملائمة رغم ما تبدو عليه الجمل من شذوذ دلالي للوهلة الأولى. 13. وذلك من خلال قواعد الإسقاط وما يوازيها من مبادئ مشتقة من مبادئ عامة للمشاهدة والمجاورة، وفي إطار النظرية المحورية، التي تصف البنية الدلالية للأحداث من خلال حقل الفضاء، فإن " بنية الأساس للمسار الموصوف بواسطة أفعال الحركة الموجهة [...] تكون محفوظة في المعنى الاستعاري". 14

إذن، الفرق بين المعنى الحرفي والمعنى الاستعاري للجملة، يكون فقط في نقل السمات من المحمول (أينعت) إلى الموضوع (رؤوسا)، أو ما يسميه بلاك بالبؤرة، ويتم التفاعل بين البؤرة والإطار (frame)، أي مكونات الجملة الأخرى التي تبقى كلماتها في معناها الحرفي، على مستوى السمات بين العنصر الشاذ وباقي عناصر الجملة، أو ما يستدعيه السياق عموماً. وتلعب عملية إسناد الفعل "أينعت" للموضوع "رؤوسا" إضافة إلى التوتر الحاصل بينهما أساس انقذاح التأويل الاستعاري الموجه للمعنى المطلوب، أي المعنى الذي يريد المتكلم إبلاغه للمتلقى، لأن البناعة والقطاف لا ترتبطان بالرؤوس باعتبارها جزءاً من الكائن البشري بل تتعلقان بالثمار، ومن المقومات الجوهرية للرأس؛ التفكير والعلو. وهو في الجملة المحللة واقع ضمن علاقة كنائية هي علاقة الجزء بالكل وهي علاقة تابعة لمبدأ عام للمجاورة، نصوره على الشكل التالي: 15

13 محمد غاليم، التوليد الدلالي في البلاغة، 157 .

14 بريسول، دلالة أفعال الحركة في إطار المعجم المولد، 189 .

15 غاليم، التوليد الدلالي في البلاغة، 212 .

تحيل (س) على (ص)، إذا كانت (س) تتصور جزءاً من (ص).

والمقصود هنا هي علاقة الرأس كجزء بالجسد، أو إحالة العضو على الجسد ككل بما هو إنسان، وهي علاقة تحول للكائن البشري استنتاج الكل من الجزء والعكس، "على أساس تجربتنا التصورية مع تجاوزهما".¹⁶ أما الثمار فغير مصرح بها وتستنتج من الفعل "أينعت" الذي يُعْجِم صفة النضج في الثمار، والظرف الوقي "قطاف" الذي بمعجم مدة زمنية معينة يحدث فيها جني الثمار التي نضجت، وتعلق الثمار بغريزة الأكل، أما الرؤوس فتتعلق سياقياً بالإنسان المتمرد، مما يضعنا أمام عالَمين؛ عالم غير ممكن هو "رؤوس أينعت وحن قطافها" وعالم ممكن هو الذي سيزودنا به التأويل الدلالي للجملة، وهو تأويل قائم على ترجيح سمة [إنسان] المضمرة في كلمة "رؤوسا" على سمة [ثمار] الكامنة في الفعل "أينعت" والمصدر "قطاف". ويأتي التأويل في هذا الصدد لحذف السمات الملازمة للموضوع المستعار له، أي، "رؤوسا"، إذا لم تتوافق مع السمات المنقولة من الموضوع الأصلي/المستعار منه أي "الثمار"؛ وهكذا تَمْحِي سمة موضوع الثمار؛ [+ثمار ناضجة] لتحل محلها سمة الموضوع رؤوس أي؛ [+إنسان متمرد] ومن ثمة يتضح أن دلالة الجملة "أرى رؤوسا قد أينعت وحن قطافها" تحل ضمن مجال تحويل سمة الموضوع [ثمار] التي تنتمي إلى عالم النبات، والتي لا تتلاءم مع الاسم "رؤوسا"، التي تنتمي إلى عالم البشر، فيتم حذف السمة الحقيقية التي يتطلبها المدخل المعجمي للفعل "أينعت" والبحث عن استلزام جديد يتطلبه هذا الفعل، ونمثله له بتعويض الضمير بما يتطلبه الانتقاء الدلالي للفعل:

أرا[ها] أينعت وحن قطفها —> أرى [ثمارا] أينعت وحن قطافها

وهكذا، يمكن للفعل أينعت أن ينتقي موضوعاً جديداً لتوليد معنى أو معاني جديدة بموجب التوسع في المعنى الذي ترخص به قيود الانتقاء التي يفرضها، فبانتقاء الفعل "أينعت" لكيان/ موضوع آخر غير الثمار، أي "رؤوسا" تصبح الوحدات المعجمية داخل الجملة حاملة لدلالات جديدة، وذلك لأغراض ذريعة يهتم المتكلم أن تصل إلى السامع، فتصبح "الرؤوس" البانعة غلة يدفع نضجها إلى قطفها، فيتوازي قطف الثمار من على النبات، مع قطع الرؤوس من على الجسد، فالقطف الذي يرتبط بالثمار أصلاً، تحول ليعني القطع والبت في الجسد البشري، والبانعة التي تخص النبات توحى بنضج الثمار، أصبحت تحيل على الإنسان المتمرد، أو الناس الذين نضجت أفكارهم وصاروا معارضين للسلطة فيكون مصيرهم قطع الرأس، أي القتل، وهو المستفاد من الجملة. وليس أي قتل، بل القتل الذي يُتْلَذ

ويستمتع به كما يستلذ بتذوق الثمار، باعتباره تنفيذاً لرغبة سادية، لا تأبه بإيقاف الحياة لدى أناس معينين، وهذا ما تفيدنا به استعارة تصور "الثمار" للحديث عن الإنسان، الذي أصبح مجرد ملك يُتصرف فيه كما الأشياء الأخرى.¹⁷

يستفاد من كل هذا أن الجملة توجه خطاباً استعارياً يمكن صورته في إطار النظرية المحورية المطعمة بالسّمات على الشكل التالي:

الجملة	أرى	رؤوسا	أينعت	وحن قطافها
التمثيل في الكتاب المدرسي لاستعارة مكنية	Ø	المشبه المشبه به: الثمار غير مذكورة	القرينة: وهي جزء من المشبه به المحذوف، والدالة عليه.	Ø
التمثيل في إطار فرضية العلاقات المحورية المطعمة بالسّمات	حدث حسي / ذهني، فاعله مُعاني.	وهو ضحية [+إنسان] محور وموضوع حركة ذهنية خاضع للتحويل الذي يفرضه حقل الخصائص الدلالية للفعل أينع.	ذهب شيء، من [نضج]، إلى [+نضج] أي، حدث تحول عبر حركة داخلية للموضوع، أي، وجد شيء في خاصية.	وصل (أوان / زمن / وقت / مرحلة) الشروع في الحدث.

بمقارنتنا للتمثيلين في الجدول أعلاه يبدو أن أقصى ما يصل إليه توضيح المعنى الذي يقدمه الكتاب المدرسي هو الحديث عن أركان الاستعارة ونوعها كاستنتاج مباشر، أما التمثيل في إطار فرضية العلاقات المحورية المطعمة بالسّمات فيمكن أن يرشدنا من خلال السمة والدور الدلالي إلى اعتبار كلمة "رؤوس" هي الشاذة في انتقاء الفعل لموضوعاته داخل الجملة، وأن تحويل السمة سيتكفل برصد التأويل المناسب الذي يقصد إليه المضمون الدلالي للتعبير اللغوي. ويفترض هنا أن السّمات التي يزودنا بها المسند إليه / الموضوع، والمسند / المحمول تشتغل ضمن إطار تأليفي تفاعلي، حيث يتم حذف السمة المعجمية الحقيقية في الفعل "أينع" والاحتفاظ بالسمة المجازية فيه، وهذا هو دور التحويل

¹⁷ لقد استطاع الحجاج أن يحول زمن القطاف إلى زمن حرب، ومن ثمة مزج بين معجم النبات ومعجم

القتل، فسرى في النص نسغ مجموعة من الحقول المعجمية التي تتراسل مدلولاتها مع موسم القطاف لتؤدي في النهاية إلى فكرة تفيد أن المتحكم في الرقاب متحكم في أجلها ومصيرها ومسيرها، ومتحكم أيضاً في اللغة وله الحرية في إسناد الأسماء والأوصاف والأفعال والأحوال كما يشتهيها أن تكون لمن يناقضه أو يناهضه، ومن ذلك المساواة بين قطف الثمار وقطع الرؤوس كما رأينا من قبل، ومن تلك الحقول نذكر حقل النبات، وحقل الحرب والقتال، وحقل الحيوان، وحقل موت البشر، ومن الألفاظ الدالة على النبات نذكر مثلاً، أينعت، قطافها، التين، لحو، العصا، السلمة، الفقع تحصد، أما الدالة على الحرب والقتل فنذكر، السلاح، الملاحم، الرماح، سيفي، سوطي، المغازي، محارة، عدوكم، والدالة على الحيوان، الوضم، الحطم، نذكر الإبل، البيطار، بالفرس، بعنان، الذئب، فرخ، نعب، زفر، تلحق، باض، والدالة على موت البشر مثلاً، الآخرة، عذاب، الجنة، نعي، الجنة النار، الصراط، الأجل.

الدلالي، الذي يرصد تنقل السمات وتغيرها الدلالي حسب السياقات التي ترد فيها، فتتوسع تلك السمات لتحمل المعنى من داخل اللغة إلى خارجها، أي المعنى السياقي أو الموسوعي، ويظل مبدأ المشابهة باعتباره مبدأ عاما على التعابير الاستعارية التي ينتجها الفرد أساسا لفرز ما هو حقيقي مما هو استعاري، ومن ثمة الخلوص إلى فحوى القول ومقصده. وما دام بلوغ هذا القصد يحصل في ذهن المؤول (متكلما/ سامعا) انطلاقا من إدراك السمة الشاذة في القول ثم تحويلها إلى سمة/ سمات يفرضها السياق، فتصبح سمة الموضوع المستعار منه [ثمار ناضجة] محيلة على سمة الموضوع المستعار له [رؤوس متمرده...]. (أو ما يدخل ضمن المعنى السياقي الذي يصب في هذا الاتجاه) فيتحول مفهوم القطف إلى قطع وبتر، ويصبح نضج الرؤوس مطلبا لقطعها، كما هو القطف مطلب في الثمار الناضجة. وهكذا تسمح لنا المرونة العالية التي تتمتع به الكلمات داخل سياقها الجملي بنقل رسائل لا تتعلق بمعانيها المباشرة، بل بمعان جديدة يحتاج تفكيك رسائلها إلى إوالية عقلية تصورية لاستخلاص "وضبط إبداع الدلالات الجديدة"¹⁸.

3. الدور الدلالي، السمات الفعلية، وبناء الاستعارة

تكتسي السمات المحورية والدلالية للفعل أهمية قصوى في تحديد نوع الاستعارة، ذلك أن الاستعارة حين تكون مرتبطة بالفعل، تسمى تبعية. ونعلم أن الفعل من خلال مدخله المعجمي، هو الذي ينتقي موضوعاته ويربط بين العلاقات النحوية والعلاقات المحورية. وإذا كان الفعل أينع يستخدم لازما ومتعديا.¹⁹ فقد استخدم في المثال المدروس لازما، بمعنى "أينعت الرؤوس" ورغم أن وظيفة "الرؤوس" التركيبية هي الفاعل إلا أنها مفعول في المعنى لأنها لا تنجز حدث "الينعان" بل يحدث لها، لذلك فهي توافق دورا دلاليا هو الكيان المتأثر، الذي يمكن أن نعته بالمحور المنتقل من وضع [- ناضج] إلى وضع [+ ناضج] الذي تراقبه سمة الحيوية أي؛ [+ حي، + عاقل]، بدل سمة [+ ثمار] التي يفترض أن يتضمنها المدخل المعجمي للفعل أينع في المعجم. ويعبر المحور عن دور الضحية الذي تخوله له سمة الحيوية، وهكذا نصل إلى أن الاستعمال المجازي وغير المجازي يعطيان بنيات متماثلة، ويلعب الاختلاف في السمات المقترنة بالفعل قبل توسعه وبعد توسعه مصدر التفريق بين المعنى الطبيعي والمعنى الاستعاري.

وفي سياق الجملة المركبة نجد الموضوع "رؤوسا" مفعولا للفعل "أرى" وفاعلا للفعل "أينع" لكنه مفعول لحدث القطف في المعنى، بمعنى أنها الضحية في كل حال، ففيها (الرؤوس) يحدث الإيناع، وهذا الأخير هو مسبب القطف،

¹⁸ نفسه، 55.

¹⁹ انظر لسان العرب: يَنْعُ الثَّمَرُ يَنْعُ وَيَنْعُ يَنْعًا وَيُنْعًا وَيُنْعًا فهو يَنْعٌ من ثَمَرٍ يَنْعُ وَيَنْعُ يُنْعُ إيناعاً كلاهما أذرك ونضج، أينع التمر، وأينعت الشمس الثمار (أنضجتها).

والقطف نتيجة لرأي المتكلم، وبذلك يتضح أن الدور الدلالي يحافظ على السمة المركزية للموضوع باعتباره ضحية. ولناقشنا الجملة من منظور الانتقاء الدلالي للفعل، سنجد أنها مسقط على بنية جملة في المعنى الحقيقي، نعيدها في التالي:

(3) أرى ثمارا قد أينعت وحن قطفها.

فما حصل في المعنى المجازي هو أن الثمار قد استبدلت بالرؤوس، أو تم زرع الفعل "أينع" عن انتقائه الدلالي الاعتيادي لينتقي الرؤوس بديلا عن الثمار، وذلك لأن التصورات الاستعارية في بعدها البنيوي القائم على مبادئ استعارية وكنائية تسمح للمتكلم بالقبض على مظهر تصوري من خلال مظهر تصوري آخر، فتكون بذلك الاستعارات البنيوية مسلکا إلى بناء تصور استعاري مخصوص، عن طريق تصور آخر.²⁰ ونجد تأصيلا لهذا الطرح عند عبد القاهر الجرجاني في قوله: "إعلم إن "الاستعارة" في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعربة".²¹ وهذا ما سمح للحجاج بالقبض على تصور علاقته بالبشر من خلال تصور علاقته بالثمار، فلو أراد أن يخاطب الناس من خارج الاستعارة، لقال على سبيل المثال: أرى أناسا متمردين وسأقطع رؤوسهم.²²

لكن الحجاج أثر القول الاستعاري على القول الحقيقي، اعتبارا منه أن الاستعارة أبلغ وأقدر على تحريك النفوس والعقول، "وأن المجاز أبدع وأبلغ من الحقيقة"،²³ وهو زيادة في المعنى وإثبات له ليصير "أبلغ وأكد وأشد وأقوى إنجازا" من الحقيقة، من جهة، ويبين من جهة أخرى أن المتكلم عالم بأسرار اللغة وقادر على إنجاز أفعالها متى استدعته الظروف أو المزاج إلى ذلك، لهذا اختار الحجاج الرؤوس كجزء للدلالة على الكل، واختار لها الفعل أينعت كدلالة على التمرد أو الخروج عن الطاعة وعدم الامتثال لولي الأمر عموما، وربما اختار الرؤوس للقبح في المتلقي المقصود، لأن الرؤوس في جزء من معناها، تدخل في تعداد الدواب، كما أن اختياره للثمار يحيلنا على تلذذه

²⁰ نفسه، 96 .

²¹ عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداي، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001)، 31 .

²² يمكن أن يؤتى بعدد من الجمل للتعبير عن المعنى الاستعاري للجملة أعلاه، إذ من خصائص المعرفة الدلالية الاستلزام والترادف والتضاد والاقتضاء . . .

²³ عبد القادر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط3 (القاهرة: مطبعة المدني، 1992)، 80.

بالقتل، وأنه لا فرق بين جني الغلة وإعدام الناس، فجني الغلة للغذاء والشعب ومن ثمة الأمن الغذائي، وسفك الدم للتخلص من المشاغبين، وبالتالي تحقيق الأمن/الصمت الاجتماعي، فكلام الحجاج يوازي بين سمتين إحداهما إيجابية والثانية سلبية تتمثل الأولى في كون نضج الثمار يؤدي إلى قطعها لتفيد في تحقيق الشعب والمتعة كاستجابة لغريزة الجوع، وهذا شيء إيجابي، وتتمثل السمة الثانية في كون نضج العقول عند الناس يؤدي إلى حذفهم من الحياة، وهذا شيء سلبي، مما يوحي لنا أن المطلوب من الناس أن لا يفكروا إن هم أرادوا الحفاظ على الاستمرار في الحياة.

لقد ظل الفعل "أرى" في الجملة خارج التحليل (أقصد في الكتب المدرسية) رغم أنه يحتمل إضافة إلى معانيه اللغوية، أخرى تداولية هامة، فعلى المستوى اللغوي يعد فعل "أرى" في الجملة أعلاه فعلا يلتبس بين أفعال الحواس وأفعال اليقين، ويتطلب مفعولا واحدا مع فعل الحاسة البصرية، ومفعولين مع أفعال اليقين. وقد ورد في الجملة أعلاه في معنى النشاط الذهني، أي أرى رأيا/ رؤية، وهو بذلك يتكامل مع معاني التفكير والحكم والاستبصار والترجيح، وهو في الحالين يسند دور المعاني لفاعله، لأنه من الأفعال التي تحدث في ذهن الإنسان، وبالتالي يكون فاعلها مفعولا في المعنى.²⁴

فهل يحمل فعل "أرى"، في الجملة أعلاه، المعنى المادي أو المعنى القلبي؟ بمعنى هل استخدم في الجملة كفعل للعين الباصرة، أم كفعل للبصيرة والاستبصار؟ في سياق الخطاب الموجه إلى الناس، يبدو أن استعمال الفعل "أرى" في معناه المادي غير وارد، لأن مقام التخاطب لا يمكن أن ييدي للعين الناضرة تلك "الرؤوس الياقة" أثناء وقت الخطاب، لهذا يرجح المعنى القلبي للفعل "أرى" الذي يعني في مقامه مجموعة من أفعال اليقين المشار إليها قبل. وبتمام الرأي في ما رآه الحجاج في أمر الرؤوس التي أينعت، فيصدر حكمه تهديدا واضحا يمكن تنفيذه في الآن أو في المستقبل، لأن المتكلم/الحجاج يملك حرية تنفيذ الفعل الذي تلتبس دلالاته بين الآن والغد أي دلالة المضارع، فللمتكلم السلطة على الزمن اللغوي وعلى الزمن الواقعي، يطبقه متى يشاء في تسلطه من أجل الإمساك بزمام أمور الناس.

²⁴ جاء في لسان العرب لابن منظور مادة رأى .. رؤية، والرؤية النظر بالعين وبالقلب . وجاء في مقاييس اللغة لابن فارس: "الراء والهمزة والياء أصل يدل على نظر وإبصار بعين أو بصيرة . فالرأي: ما يراه الإنسان في الأمر وجمعه آراء ."

وللرباط "و" الذي يصل الجملة "أرى رؤوساً أينعت" بالجملة "حان قطافها"، دور هام في تحديد المعنى حيث تدل أداة الوصل هذه،²⁵ على «وجود جامع حقيقي، بين طرفي الإسناد، أو جامع ذهني» والجامع الذهني هنا هو الفعل "أينع" والظرف/الوقت "قطاف"؛ إذ بينهما ينتقل الذهن لينسج خفايا المعنى، ويفهم أسرار القول التي يضعها السياق. وتفيد الواو أيضاً الترتيب في الزمان بين "اليناعة" التي يجب أن تحصل أولاً لتؤثر على وقت "القطاف"، فالترتيب هنا زمني استلزامي بمعنى أن حصول الحدث الأول (اليناعة) يؤدي حتماً إلى حصول الحدث الثاني (القطف) بما يعنيه من قطع للرؤوس. والعكس يؤدي إلى النجاة، ويمكن أن يسمى هذا الوصل شرطاً يربط بين مُسبب وسبب، ويتضح من كلام الحجاج أن الحدث الأول يستلزم الحدث الثاني، ويستدعيه ضرورة، فإذا كان الغرض البلاغي هو الربط العقلي بين الجملتين، فإن غرض الحجاج من وراء ذلك هو الربط بين القول والفعل، وإظهار القدرة على استبدال قطف الثمار بقطع الرؤوس.

بهذا المعنى يصير المجتمع حديقة أشجار، منها المثمرة ومنها غير المثمرة، وفي المثمرة نصادف المفيد وغير المفيد، فالمفيد هو الطبع الذي يسير وفق فكر الحجاج والاتجاه الذي يخطط له، وغير المفيد هو الذي يناقض ويناهض سير نظام سلطة الحجاج.

كما هو واضح من خلال الأمثلة أعلاه أن استعمال الاستعارة ليس أمراً اعتباطياً أو تراكيبي نأني بها لتنميق الكلام وتجميله، ليدو أكثر إثارة للقارئ والمستمع، وإنما هي سيورة تتشكل من خلال عملياتنا المعرفية، بحيث نفهم ونعبر عن تجاربنا الفكرية التي تسطح في الهواجس والرغبات والطموحات والنوايا وغير ذلك من المفاهيم التي تؤطر التجربة البشرية، فنستخدم المجرد للتعبير عن الملموس، لأن استعمال مسألة متجذرة في اللغات البشرية، بل تستخدم تلقائياً ودون وعي أو إدراك للسيرورات المعرفية الثابتة خلف تشكل استعمالات اللغة من قبل المتكلمين أثناء الحديث رؤاهم ومشاعرهم، مثل ما يحدث في الاستعارة المكانية التي تنظر إلى المكان كمعطى ملموس والأكثر ملاءمة للحديث عن الزمن كمفهوم مجرد؛ ويبقى دور السيرورات اللغوية مهما ضمن هذه النوع من الاستعارة.

هكذا إذا تشكلت اللغة الخارجية التي يتداولها الناس من خلال السيرورات المعرفية واللغوية المتشابكة التي تعزز بعضها البعض، وهي سيرورات تتكامل فيها اللغة الخارجية والإدراك والثقافة، ولا شك أن الاهتمام بهذه العلاقة وتمحيصها

²⁵ "الوصل عطف بعض الجمل على بعض"، وهو «ربط معنى بمعنى حقيقي أو مجازي لغرض بلاغي».

بالحث من قبل اللسانيات المعرفية هي التي ستوفر للمهتمين بهذا المبحث مزيدا من الرؤى حول الطرق المعقدة التي نبني بها فهمنا لما ينتجه الأدباء والفلاسفة والتقرب من سبل إدراكهم للعالم من خلال اللغة.

النتائج:

وما يمكن استنتاجه، بعد تحليل المعطى موضوع البحث، أن تدريس الاستعارة عموما في مدارسنا يعاني من نقص واضح يجعل تدريس المجاز عموما، والاستعارة على وجه التحديد، نقطة عجز عند المتعلم تكبح تفكيره عن بناء تصورات حول لغته ومكوناتها الداخلية، وتضييق سبل ولوجه النصوص وفهمها وتحليلها، وحصره داخل قواعد نمطية مغلقة، تنفر أي المتعلم من الدرس البلاغي، بدل ذلك اقترحنا تكامل نظريتين بسيطتين يمكن من خلالهما إعطاء المتعلم بعض المفاتيح التي تمكنه من سبر البنيات المجازية المغلق، وخاصة الاستعارية، بكل ثقة، ويبدو أن انتهاز التحليل المقترح، سيجعل المتعلم يحس بالمتعة أثناء تحليل النصوص، بدل الامتناع من حفظ القاعدة البلاغية والوقوف عندها دون تفكير.

الخاتمة:

حاولنا، في هذا المقال، أن نرصد المعنى الاستعاري من خلال نظرية السمات والفرضية المحلية باعتبارها تجاوزا لشرح الاستعارة في الكتب المدرسية، فبينما أن أقصى ما تصل إليه الكتب المدرسية هو استخلاص القاعدة التي تحدد نوع الاستعارة. واقترحنا بدل ذلك دجما لمقاربتين لسانيتين فككنا في إطارها نموذجا للاستعارة التبعية من خلال جملة تداولتها الكتب المدرسية، فخلصنا إلى أن المعنى الاستعاري كامن في خاصية الإسناد وتحويل نمط المقولة التي ينتقيا الفعل في انتقاء غير اعتيادي، انتقاء يعتبره المتكلم مناسبا لحالته الوجدانية والفكرية، ودعمنا ذلك بنظرية السمات كبعد لساني يمكن من تفكيك المقولات اللغوية وسبر مكوناتها الداخلية والكشف عن المكونات التي تتلاءم داخل السياق اللغوي؛ فحددنا من خلالها التغير الدلالي الذي يحصل في موضوعات الفعل، حين يتم إسناد سمة غير اعتيادية للمستعار له، قصد تحقيق ما أسميناه بالتغير الدلالي. أما فرضية العلاقات المحوري فبينما من خلالها دور الحركة والانتقال الذهنيين من حالة إلى أخرى، باعتبارها حركة تصورية متجذرة في الفكر البشري تقول على أساس فضائي، وهي أساسية في إدراك وبناء الجمل الاستعارية، ومن ثمة كان كل من التغير الدلالي الذي ترصده السمات والتنقل في الفضاء الذي ترصده العلاقات المحورية تصورين متكاملين في رصد بنية الجملة الاستعارية التي تنتقل مقولاتها المعجمية بين الحقيقة والمجاز.

المراجع بالعربية

- 1- بريسول، أحمد. دلالة أفعال الحركة في إطار المعجم المولد. الدار البيضاء: دار الكتاب الجديدة، 2013.
- 2- الجرجاني، عبد القادر. أسرار البلاغة في علم البيان. تحقيق عبد الحميد هندراوي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 2001.
- 3- ———. دلائل الإعجاز. ط3. القاهرة: مطبعة المدني، 1992.
- 4- غاليم، محمد. المعنى والتوافق، مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي. الرباط: منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، 1999.
- 5- ———. التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1987.

- 6- " ————— السمات وهندسة اللغة. " في منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب .
جامعة محمد الخامس-الرباط، ط1، 2015 .
- 7- لايكوف، جورج، ومارك جونسن .الاستعارة التي نحيا بها . ترجمة عبد المجيد جحفة. الدار
البيضاء: دار توبقال للنشر، ط1 1996 .
- 8- لوسركل، جان-جاك .عنف اللغة . ترجمة محمد بدوي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، المركز
الثقافي العربي، 2005 .
- 9- الرواعي، عبد الصمد. " السمات وهندسة اللغات. " في السمات في المقولات اللغوية:
الوجهات والنمطيات، إعداد محمد غاليم، 122-135. الرباط: منشورات معهد
الدراسات والأبحاث للتعريب، جامعة محمد الخامس، 2015.
- 10- زيادة، محمود .الحجاج المفترى عليه . ط1. القاهرة: دار السلام، 1995.

المراجع باللغة الأجنبية

- 1- Jackendoff, Ray. *Foundations of Language: Brain, Meaning, Grammar, Evolution*. Oxford: Oxford University Press, 2002.
- 2- ———. *Semantics and Cognition*. Current Studies in Linguistics Series 8. Cambridge, MA: MIT Press, 1983.
- 3- Legallois, Dominique. « L’approche cognitive de la catégorisation par métaphore : illustration et critique à partir d’un exemple d’É. Zola ». *Pratiques* 165-166 (October 1, 2015). Accessed September 30, 2016. <http://pratiques.revues.org/2485>. doi:10.4000/pratiques.2485.
- 4- Marin, Alex, Martin Reimann, and Raquel Castaño. “Metaphors and Creativity: Direct, Moderating, and Mediating Effects.” *Journal of Consumer Psychology* 24, no. 2 (2013): 290–297.
- 5- Stern, Josef. *Metaphor in Context*. Cambridge, MA: MIT Press, 2000.